الورّاقون والنساخون ودورهم في الحضارة العربيّة الإسلاميّة

● د. سيد أحمد علي الناصري ●

الدارة ١٧٨

تتمثل أهمية هذا الموضوع في سببين؛ السبب الأول : وهو أن دراسة المواد التي دونت عليها كنوز التراث العربي لم تحظ حتى الآن بالاهتمام الكافي من جانب الباحثين العرب بقدر ما حظيت به من اهتمام المستشرقين، لأن المنهج العلمي السليم لدراسة وتحقيق التراث يوجب دراسة المواد التي دون عليها التراث، والأحبار المستخدمة، وأنواع الخطوط والأقلام، وأسلوب المدّون أو النساخ ودرجة ثقافته، ومدى علاقة فهمه للنص الذي نسخه. ومن ناحية أخرى فقد وجدت في نفسي هوى وعاطفة لدراسة أحوال هذه الطائفة، التي بفضلها حفظ التراث، والتي كانت تقوم في صمت ومعاناة بدور آلات الطباعة ودور النشر والتوزيع، ففي تلهفنا وعجالتنا لم نعطها حقها من الاهتمام.

أما السبب الثاني لأهمية هذا الموضوع، فهو محاولة الاعتماد على الأدب العربي كمرآة للحياة العربية، فالمؤرخون بقوا وقتاً طويلاً (ولا يزالون) ينفرون من دراسة الأدب العربي أو يشيرون إليه على استحياء، ولا يهتمون بدراسة الأدب والشعر كمصدر من مصادر التاريخ، وعلى الجانب الآخر، فإن الدارسين للأدب العربي قلما يستندون إلى التاريخ لفهم خلفية وروح النص الأدبي والأشعار المعبرة عن روح العصر والمجتمع. ففي محاولتي هذه بدأت مؤرخاً فوجدت نفسي انتهي أديبا!

كانت نقطة الانطلاق هي الرجوع إلى المعاجم العربية للبحث عن أصل كلمة ورق «وورّاق»، وأفادتنا هذه المعاجم أن كلمة «**ورق**» جاءت أصلاً من ورق الشجر، إحدى مواد الكتابة عند العرب قبل تعرفهم على الورق المصنوع، أمَّا كلمة «**ورّاق**» فقد وردت بمعنى الدراهم، ربما لكثرتها تكون مثل ورق الشجر، فقد جاء في قوله تعالى في سورة الكهف(١) **﴿ فابعثوا أحدكم بوَرِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً ﴾** و«**الورّاق**» تعني في المعاجم العربية «الرجل كثير الدراهم»، كما تعني العامل في صناعة الورق، وتأتي أيضاً كلمة «**مورّق الكتب**» أي الذي يحترف الوِراقة، مثل بيع الكتب ونسخها وخطها وتجليدها وتذهيبها(٢)، فقد كان فن تذهيب أغلفة الكتب أحـد الفنون التي أخذها العرب عن الروم ولكنهم فاقوهم فيها فيما بعد.

وفي الأصل، لم يكن الورق من ابتكار العرب، لأن مواد الكتابة العربية المبكرة كانت

على ورق الشجر وعلى اللخاف وهي حجارة بيض رقاق، وكذلك على عسب النخل وهي الجريد الذي لا خوص فيه، كما كتبوا على الجلود وعظام الحيوانات، وعلى قطع النسيج وألواح النحاس والخشب(٣)، ولقد كان أهل الصين أول من توصلوا إلى سر صناعة الورق واستخراجه من شرانق الحرير، غير أن العرب تعلموا صناعة الورق من صناع صينيين وقعوا في الأسر عندما سقطت سمرقند عام ٧١٢م في أيديهم، ثم بدأ العرب يستبدلون شرانق الحرير بمواد أكثر توافراً في أقاليم الدولة الإسلامية وكان الورق الصيني يسمى الكاغد فسماه العرب بنفس الاسم بعد إحداث التغيير الهام الذي يعتبر حادثاً هاماً في تاريخ العالم، فقد قام المسلمون بتنقيته مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي .. وكان في القرن الثالث الهجري يصنع في بلاد ما وراء النهر فقط، أما في القرن الرابع الهجري فقد كانت توجد مصانع للورق في دمشق وطبرية بفلسطين وبطرابلس الشام، لكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعة الورق، فقد داعب الخوارزمي أحد أصحابه معاتباً لقلة الكتابة إليه قائلاً «هل سمرقند بعدت عليه، والكاغد عز عليه»(٤)!

ولقد كان أول ظهور للورق الكاغد في مكة المكرمة عام ٧٠٧م، ثم انتقلت هذه الصناعة إلى مصر عام ٨٠٠م حيث يحدثنا الثعالبي في لطائف المعارف «أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر» (يقصدون البردى) كما ظهر الورق العربي في الأندلس عام ٩٥٠م، وفي القسطنطينية عام ١١٠٠م، وظهر في صقلية عام ١١٠٢م وفي إيطاليا عام ١١٥٤م، ثم انتقل إلى المانيا عام ١٢٢٨م، ولم يصل إلى انجلترا إلا في حوالي عام ١٣٠٩م.(٥)

ولقد أشار كل من القزويني والثعالبي إلى أن صناعة الورق امتدت من الصين إلى سمرقند وعندما فتح المسلمون سمرقند عام ٧١٢م، عملوا على استخراج رقائق رفيعة من الكتان والنباتات ذات الألياف لتحل محل الرقوق (Parchment) الجلدية، وفي ذلك يقول الثعالبي «ومن خصائص سمرقند «الكواغيد» التي عطلت قراطيس مصر والجلود، التي كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأرفق وأوفق، ولا تكون إلا بها وبالصين»(٦). كذلك ذكر ابن خلدون أن الفضل بن يحيى تعرف على صناعة الورق أثناء ولايته على خراسان، ثم أدخل صناعته في بغداد على أيام هارون الرشيد، في أواخر القرن الثامن الميلادي، فأنشأ أول مصنع للورق في البلاد الإسلامية في بغداد عام ٧٩٤م(٧) ثم أنشئت مصانع للورق في الشام(٨)، وفي سائر أنحاء الخلافة الإسلامية، وفي القرن الثاني عشر الميلادي وصلت

صناعة الورق العربية إلى أوروبا وذلك عندما أدخلها العرب أنفسهم إلى الأندلس، حيث كانت طليطلة – بوصفها من أكبر المراكز الثقافية في ذلك الوقت – أول المدن الأسبانية التي دخلت إليها مصانع الورق(٩). لكن آراء المؤرخين تكاد أن تجمع على أن أقدم وثيقة عربية مخطوطة على الورق العربي ترجع إلى القرن التاسع، وعلى وجه التحديد إلى عام ٨٦٦م(١٠).

وبالرغم من ذلك فإن بعض المستشرقين المعاصرين المتخصصين في دراسة الوثائق يرددون القول بأن الوثائق العربية الخاصة والعامة قليلة اذا ما قورنت مثلاً بوثائق أوراق البردى المصرية في عصور البطالة والرومان والبيزنطيين، غير أن الرد على ذلك هو أن المؤلفين العرب – خاصة من عنوا بالتاريخ – كانوا كثيرين، وكانوا يهتمون بهذه الوثائق، وينقلوها في مؤلفاتهم وبالنسبة لهم تنتهي قيمة الوثيقة بعد دراسة المؤرِّخ لها، ونقلها إلى مؤلفه، فقد كان اهتمام العرب بالكتاب المخطوط المعتمد على الوثائق المتفرقة. ولذا فإن أغلب الوثائق التاريخية العربية كالمعاهدات والمراسلات نجدها منقولة بالحرف داخل أعمال هؤلاء المؤرخين. وهناك شك في أن التنافس الشديد بين المؤلفين العرب جعل بعضهم يتخلص من الوثيقة بعد دراستها ونقلها حتى تصبح مؤلفاتهم هي المصدر الوحيد لهذه الوثائق المفقودة. وقليلون يعرفون أن هناك وثائق عربية مدونة على أوراق البردى منذ خلافة عمر ابن الخطاب وحتى وصول الورق الكواغيد في القرن التاسع الميلادي عثر عليها في مصر، وقام الأستاذ جروهمان Grohmann بنشرها.(١١) ثم قام هذا الأستاذ بإعادة نشرها باللغة العربية بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن.(١٢)

ولقد عُثر على مخطوط في مكتبة الأسكوريال في أسبانيا ترجع إلى عام ١٠٠٩م، تثبت أن العرب هم أول من صنعوا الورق من القطن، وبلغوا في ذلك شأناً كبيراً، مكَّنهم في نهاية الأمر من التوسع في صناعة الورق من مواد رخيصة وميسّرة مثل الأسمال القطنية البالية والورق المستهلك، فضلاً عن القنب والكتان، ولقد تم ذلك التطوير في بغداد، ومنها انتشرت هذه الصناعة في سائر أنحاء العالم الإسلامي، ولقد حاز مصنع «شاطبة» العربي شهرة كبيرة في صناعة الورق الجيد حتى امتدحه الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي(١٣). فقد حققت صناعة الورق العربية ذوقاً رفيعا في صنع الورق النظيف الناصع البياض، وبالتالي تطورت صناعة الأحبار ذات الألوان المختلفة، كما نبغ العرب في زخرفة وجوه الكتب المخطوطة، بتسبيك

تلك الألوان المختلفة من الحبر، والإبداع في تنميقها وتذهيبها على صفحات شتى.(١٤)

ولأن الورق ارتبط ببلاد العرب فقد أطلق عليه الأوروبيون اسم الصحائف الدمشقية Charta Damascena بعد نقل صناعته العربية إلى بلادهم في القرن الثاني عشر الميلادي وذلك لأن دمشق كانت في ذلك الوقت السوق الدولية لتجارة الورق وانتاجه في العالم. أما أهل الأندلس من الأسبان فقد أطلقوا عليه اسم رقائق الكتان» Pergamono de Panno تمييزاً له عن الرقائق الجلدية التي كانت تشتهر بها مدينة برجامة Pergamon في آسيا الصغرى، والتي ظل الأوروبيون يكتبون على رقائقها الجلدية الباهظة الثمن طوال العصور الوسطى، وحتى وصول الورق العربي الرخيص الثمن، وظل الأسبان يطلقون على الورق العربي هذا الاسم، حتى أننا نجده مذكوراً في قوانين الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم عام ١٢٦٣م.(١٥)

ولقد كانت جزيرة صقلية أولى الأماكن التي أدخل إليها العرب صناعة الورق(١٦)، ومنها انتشرت في ايطاليا والمانيا، كما انتشرت من أسبانيا إلى سائر بلدان غرب أوروبا(١٧)، فساهمت هذه الصناعة في إحداث نهضة تعليمية ساعدت أوروبا في القضاء على جهل العصور الوسطى، وأحدثت الإرهاصات الأولى لما يعرف بعصر النهضة الأوروبية، فكما قدّم أجداد العرب المسلمين من الساميين خدمة كبرى للإنسانية بابتكار الأبجدية التي نقلتها عنهم كافة شعوب الشرق والغرب، وفجرت بواعث الحضارة عندها(١٨)، فإن الأحفاد المسلمين قدموا خدمة أجل عندما نشروا صناعة الورق التي يسرت التعليم وحفظت للإنسانية تراثها من النسيان وقضت على احتكار الرهبان والكهنة ورجال الإقطاع للتعليم والعلم، وفتحت أبوابه على مصراعيها لكافة طبقات المجتمع الأوروبي إضافة إلى ذلك أن أثمان رقائق الجلود كانت باهظة الثمن فقد كان الرهبان يعيدون استخدامها أكثر من مرة بعد محو ما كان مدوناً عليها، وفي عصر التعصب الديني وكراهية الكنيسة لنشر التعليم غير اللاهوتي قام الرهبان بمحو كل ما كان مدوناً من تراث الاغريق والرومان، ودونوا مكانه موضوعات مكررة ومملة من موضوعات اللاهوت الكنسي، وبذلك ضاع أغلب تراث الاغريق والرومان الثقافي، ولولا فضل العرب في إدخال الورق لفقد الأوروبيون البقية الباقية لهذا التراث، الذي قامت عليه النهضة الأوروبية فيما بعد. ويشهد على تأثير العرب في صناعة الورق كثرة المصطلحات العربية المستخدمة في صناعة الورق حتى الآن، منها على سبيل الثال لا الحصر كلمة (Rame) أي رزمة(١٩)

أما بالنسبة لنتائج إدخال وانتشار صناعة الورق في الدولة العربية الإسلامية منذ العصر

العباسي الأول، فقد كانت مثيرة، فبالاضافة إلى أن الإسلام حضٌ على العلم والتعليم، وجعله فريضة على كل مسلم، إلا أن استعمال الورق أحدث طفرةً ثقافيةً وحضاريةً لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، فقد يسّر الورق على العلماء تأليف الكتب ونسخها، فقد ازدهرت تجارة الكتب وأعمال الوراقة في بغداد في خلافة هارون الرشيد، وبلغ عدد المكتبات قرابة المائة، عدا الناشرين الذين يملكون مشاغل النسخ(٢٠)، وأصبح الكتاب يلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان العربي المسلم، ولقد عبّر الجاحظ عن ذلك في رسالته إلى المعلمين بقوله «ولولا الكتاب لاختلت أخبار الماضين، وانقطعت آثار الغائبين، ولقد رأينا عمود صلاح الدين وصلاح الدنيا إنما يعتدل في نصابه، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب»(٢١). ونتيجة لذلك فقد تهافت المسلمون على جمع الكتب المخطوطة في بيوتهم، حتى أصبح وجود المكتبة في البيت الإسلامي أمراً متمماً لتأثيثه وتزيينه، حتى ولو لم يكن صاحبه من أهل العلم، فقد روى المقري في كتابه «نفح الطيب» حكاية نقلها عن الحضرمي، الذي سمع أحد علماء الأندلس يقول «أقمت مدة في قرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب وقوع كتاب به، لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع هو بخط فصيح، وتفسير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت للمنادي : أرني من يزيد في هذا الكتاب، حتى وصل ثمنه إلى مالا يساويه، فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له : أعز الله مولانا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي : لست بفقيه، ولا أدري ما فيه ولكني أنشأت خزانة كتب لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنته، ولم أبال بارتفاع ثمنه»(٢٢)

وإذا كان ذلك حال الخاصة، فما بالنا بالعلماء وأهل العلم، الذين أقبلوا على اقتناء الكتب، حتى أصبح لدى كل عالم وفقيه مكتبة مليئة بعيون التراث والمعرفة، يجمعونها من كل حدب وصوب، وفي كل فروع العلوم والثقافات، بل وذهب بعض هؤلاء العلماء إلى وقف مكتباتهم على المساجد. وبذلك تحول المسجد إلى أماكن للدرس والتحصيل(٢٣) ، ومن الجامع الإسلامي ولدت فكرة الجامعة والكليات، ولقد روى أن سلطان بخارى دعا طبيباً عربياً ذائع الصيت ليقيم في بلاطه، فاعتذر هذا الطبيب عن تلبية دعوة السلطان، متحججاً بأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير لكي ينقل مكتبته معه. ولما توفي الواقدي، أورث أبناءه ستمائة صندوق كبير مملوء بالكتب، ينوء بحمل الصندوق الواحد منها رجلان(٢٤).

ومن ناحية أخرى، بدأ الخلفاء والسلاطين يقيمون المكتبات للناس وكانوا يتباهون بما يجمعون فيها من كتب مخطوطة ومنسوخة، وينفقون عليها ببذخ شديد، لتنميتها، وتضمينها بالمخطوطات التي لا توجد في أي قطر سواها، حتى يأتي الناس إليها من كل صوب ومكان، للقراءة والاطلاع والنسخ، فانتشرت خزائن الكتب في أقطار العالم الإسلامي من سمرقند وفاس، إلى بخارى وقرطبة، ومن بغداد ودمشق إلى حلب والقاهرة، ولقد بلغ من اهتمام المأمون (٧٨٦–٨٣٣م) وولعه بجمع الكتب أنه أصرَّ على أن يكون أحد شروط الصلح مع الامبراطور الرومي ثيوفيلوس Theophilos تسليم محتويات إحدى المكتبات في القسطنطينية فنقلها إلى مكتبة بغداد فوق مائة بعير، وكان من بين ذخائر هذه المكتبة مخطوطات علمية نادرة من بينها كتاب بطليموس عن الرياضيات السماوية، الذي أمر المأمون بترجمته إلى العربية، وسماه المجسطي أي الأعظم بالاغريقية Megistos(٢٥)، ويروى أيضا أن الخليفة الحكم صاحب الأندلس كان يبعث مندوبين عنه إلى جميع بلدان المشرق والمغرب، يفتشون عن المخطوطات النادرة، ويدفعون مبالغ طائلة مقابل شرائها أو نسخها، ويروى عن هذا الخليفة نفسه أنه لما سمع بأن أبا الفرج الأصفهاني قد انتهى من كتابه «الأغاني» أرسل إليه ألف دينار من الذهب ليبعث إليه بنسخة منه بحيث تصل إلى الأندلس قبل أن يخرجه في العراق(٢٦). وقيل أيضا أن فهرست مكتبته في قرطبة تألف من أربع وأربعين كراسة بكل منها عشرون ورقة(٢٧). وقد قيل أيضاً إن غرناطة لما سقطت كآخر معقل للمسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م، ألقى المتطرفون الصليبيون الأسبان من جماعات محاكم التفتيش مئات الأطنان من المخطوطات العربية في النهر الذي تقع عليه المدينة، حتى ازرق لون مائه من شدة أحبار هذه المخطوطات، ويتساءل المستشرقون الأسبان اليوم عما تكون عليه الدراسات الثقافية في أسبانيا وغرب أوروبا، لو لم يقدم رجال محاكم التفتيش على هذه الجريمة الشنعاء، صحيح إن الندم لا يفيد صاحبه، ولكنه يمثل يقظة الضمير الأوروبي وندمه على جرائمه التي ارتكبها في حق الحضارة العربية الإسلامية رغم فضلها عليه وعلى حضارته.

ومن عينات الجرائم الهمجية التي ارتكبت في حق الحضارة العربية ما فعله المغول عندما هاجموا بغداد ودمروها عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، فقد كان في بغداد في ذلك الوقت ست وثلاثون مكتبة عامرة بالمخطوطات النفيسة النادرة(٢٨) والتي كانت تحوي كافة فروع المعرفة الإنسانية، في وقت كانت فيه أضخم مكتبات الأديرة في الغرب الأوروبي لا تضم أكثر من مائة مخطوط، وهذا يجعلها لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بخزائن الكتب التي حوتها دار الحكمة

في بغداد، أو القاهرة، أو المكتبات الملحقة بالمساجد ودور العلم في بقية مدن العالم الإسلامي، فمثلاً عندما أراد ياقوت الحموي وضع كتابه الموسوعي «معجم البلدان» عكف على القراءة في مكتبة «مرو» ومكتبة «خوارزم» ثلاث سنوات كاملة، ليجمع المادة العلمية اللازمة، قبل أن يشرع في كتابة هذا العمل العظيم.(٢٩)

ولقد ازدهرت حرفة الوراقة ونسخ المخطوطات وإنشاء خزائن الكتب وبلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري الذي هو العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، وأصبح التفوق الثقافي مجالاً للتنافس بين العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس، وبين الحمدانيين في حلب والفاطميين في مصر. ولقد حرصت إمارة الحمدانيين في حلب والموصل على أن تكون جنة الأدباء والشعراء والفلاسفة في نفس الوقت التي قادت المقاومة الإسلامية وحدها ضد العدوان البيزنطي المتلهف لاحتلال الشام وفلسطين، حتى قيل إن ملك الروم عاير الأمير أبي فراس الحمداني بأن قومه قوم كتاب وأصحاب أقلام ولا يعرفون الحرب، مما ألهب مشاعر الأمير فاندفع بقواته لتأديب ملك الروم المتبجح، وأنشد الأمير الشاعر قصيدته الغراء مخاطباً ملك الروم المجروح والمندحر، والتي جاء فيها قوله :

بأقلامنا أجُحِرتَ أم بسيوفنا   وأسدُ الشرى قدنا إليك أم الكُتُبا(٣٠)

وفي مصر كان لدى العزيز بالله الخليفة الفاطمي، مكتبة ضخمة في القاهرة قدرها المقريزي بمليون وستمائة ألف كتاب(٣١)، ووصفها بأنها من أعاجيب الدنيا في عصره، في حين قدرها ابن واصل بما يزيد على مائة وعشرين ألف كتاب(٣٢). وفي القاهرة أيضاً أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة لتنافس دار الحكمة في بغداد، وحمل إليها الكتب من خزائن القصور، وجمع فيها كل ما هو نادر من عيون التراث العلمي والإنساني، وقصدها سائر الناس يقرأون وينسخون، ويقول عنها المقريزي «إن دار الحكمة فتحت في القاهرة سنة ٣٩٥هـ وفرشت وزينت وعلقت الستائر على أبوابها، وجلس فيها الفقهاء والعلماء والأدباء لتدريس علوم الفقه والنحو، واللغة والطب، وأقبل عليها الطلبة للدراسة والقراءة والاطلاع، والناس للاستماع، والنساخ لنسخ ما يريدون من الكتب النفيسة التي زودت بها، وحملت إليها من خزائن القصور، وعين لها خدم لخدمة العلماء والطلاب، وقد زودها الحاكم بأمر الله بالكتب النفيسة في العلوم والآداب، وبالمخطوطات النادرة، أهداها إلى دار الحكمة وأباح لمن يرغبون في القراءة الانتفاع بها ودراستها والنظر اليها، وأقبل الناس على قراءة الكتب أو نسخها أو تعلمها، وزودها بما

يحتاج إليه الناس من أقلام ومحابر، وأوراق للكتابة، وأقيم لها قوّام وخُدَّام وفراشون وغيرهم رسموا بخدمتها، وأجرى عليها من الأرزاق السنية ما حقق حياة هنيئة للخدم والفراشين كما أمر بفتح أبوابها لمن يشأ الاستفادة من كنوزها العلمية في الكتب والمخطوطات.(٣٣)

وفي عصور الاضمحلال الإسلامي، كانت بعض هذه الكتب - والتي كانت منسوخةً بماء الذهب والفضة - تعطى إلى الجند الأتراك مقابل رواتبهم المتأخرة، وذلك في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٤٦هـ / ١٠٥٤م)، حليف البيزنطيين وصديقهم(٣٤)، بل بلغ الأمر أن بعض الكتب اتخذ العبيد والأماء من جلودها نعالاً وأحذية، وأخيراً هدم صلاح الدين الأيوبي هذه الدار ليقيم مكانها المدرسة الشافعية.(٣٥)

كانت المكتبات الإسلامية تقام في أبنية جميلة تشرح صدور المترددين عليها، وكان بها حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة على جدران الحوائط، وقد خصصت بعض الأروقة للاطلاع، وبعض الحجرات للنساخ والنسخ، والبعض الآخر لدروس العلماء والمناظرات، وكانت هذه المكتبات تؤثث بأفخر الأثاث، وتفرش أرضياتها بالبسط والحصير حيث يجلس المطلعون، ومن وصف المقريزي نفهم أن الستائر كانت تقام على النوافذ والأبواب، ولراحة المطلعين كانت أسماء الكتب ومؤلفوها تكتب على أطراف الصفحات وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة حسب موضوعات الكتب، كما كانت تلصق على جانب كل رف ورقة بها أسماء الكتب التي يحتويها، وقد سمح بالاستعارة الخارجية خاصة للعلماء والأعيان.(٣٦) وكان يعمل بالمكتبة موظفون يرأسهم «الخازن» وهو أمين المكتبة والذي كان يختار من أهل العلم والمكانة، فقد توصل العرب قبل غيرهم من الأمم إلى علم إدارة المكتبات، وتصنيف المؤلفات تصنيفاً موسوعياً، ومن أشهر خُزّان المكتبات سهل بن هارون وابن مسكويه وأبي يوسف الأسفرايني.(٣٧) وكان بكل مكتبة عدد من النساخين والمترجمين والمجلدين، بالاضافة إلى عدد من المناولين الذين يحضرون الكتب للقراء، وقد أطلق عليهم اسم الخدم تمييزاً لهم عن الفراشين الذين يقومون بتنظيف فراش وأثاث المكتبة. وقد زودت المكتبات الكبرى بكل ما يحتاج إليه الباحثون والمطلعون من أدوات كتابية مثل الأقلام والأحبار والأوراق، بل زودت أيضا بالمياه الباردة لراحة الباحثين والمراجعين والناسخين والمترجمين، بل رتب فيها معلمون يدرسون للناس المعرفة والعلوم، وكان يجتمع في هذه المكتبات صفوة العلماء والأدباء، وتقام فيها الندوات والمناظرات.(٣٨)

ولقد قامت كل هذه النهضة الفكرية على أكتاف النساخين والوراقين، الذين اضطلعوا بنسخ الآلاف المؤلفة من المخطوطات والمدونات، التي شملت كافة مجالات العلوم والمعرفة الإنسانية، فقد لعب النسّاخون والورّاقون دوراً كبيراً في نشر الثقافة، فكانوا يلعبون دور آلات النسخ والطباعة التي نستخدمها في عصرنا الحالي. بل كانوا مدرسة تخرج منها العلماء، فكثير من المؤلفين بدأوا حياتهم كنساخ وكتبة ووراقين في قصور الخلفاء أو في حوانيتهم التي أصبحت تشغل أحياء كاملة في كل مدينة عربية. فمثلاً يذكر اليعقوبي أنه كان في بغداد في القرن التاسع للميلاد (أي بعد أقل من قرن من الزمان منذ أن أدخل العرب صناعة الورق) ما يزيد على مائة ورّاق، استخدمت حوانيتهم في نسخ الكتب وبيعها والاتجار فيها.(٣٩) وتحولت حوانيت الوراقين إلى منتديات يلتقي فيها الأدباء والعلماء، وغالباً ما كان بعض أصحاب الحوانيت من المهتمين بفروع الثقافة والمعرفة، فكان منهم الفقهاء ذوي الشهرة مثل ابن النديم صاحب الفهرست الشهير، وأبو حيان التوحيدي، ومن أشهر الوراقين الذين أصبحوا أدباء ذائعي الصيت ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء، بل كان لبعض الوراقين تأثير علمي وأدبي على أسرهم فنبغ بعض أفرادها مثل «زينب» و «حمدة» ابنتا زيد الورّاق تاجر الكتب الذي كان يعيش في وادي الحمى بالقرب من غرناطة، فقد عُرِفَتْ زينب وحمدة بسعة الاطلاع والتبحر في العلوم والآداب، بل كانتا تقفان في صف مشاهير أهل العلم في عصرهما.(٤٠)

ولما كان ياقوت الحموي في الأصل ورّاقاً، فقد أعطى اهتماماً خاصاً لدراسة أشهر الورّاقين والنساخين الذين انتهوا أدباء ومفكرين وفلاسفة، مثل إمام الورّاقين أبو حيان التوحيدي، الذي وصفه بأنه كان متفنناً في جميع العلوم من نحو ولغة وفقه وشعر ونثر وأدب، بل وصفه بأنه «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»، ومن كبار علماء المسلمين الذين بدأوا حياتهم ورّاقين ونساخين ابن «الخراز» وأبي بكر القنطري وأبو الحسين الخراساني، وابن عقيل، الذي وفّاه الطبري حقه من التبجيل والتكريم ومن الوراقين المشهورين أيضاً ابن صالح الذي ذكره الباخرزي في مخطوطه الشهير «دمية القصر»، ومنهم سراج الدين الورّاق المصري والكاتب والشاعر والمولود سنة ٦١٥هـ والمتوفى سنة ٦٩٥هـ، وهو الذي قال في هجاءِ نفسهِ :

يـا خجلَتـي وصَحَائِفـي سُــودٌ   وصَحَائِـفُ الأبـرارِ في إشـراقِ
وموبـخٌ في القيامـةِ قـالَ لِــي   أكـذَا تكونُ صَحَائفُ الـورَّاقِ(٤١)

ويجيء في مقدمة الورّاقين الموسوعيين محمد بن اسحق النديم، الذي اشتهر بالورّاق وهو الذي سار على نهجه ياقوت الحموي الرومي عندما ألف درتيه الخالدتين معجم الأدباء ومعجم البلدان. ولقد كان ياقوت الحموي في الأصل رومياً، أسره العرب صبيا إبان حروبهم مع الروم، وباعوه في سوق النخاسة، فاشتراه تاجر من بغداد يدعى عسكر الحموي، فأعطاه اسمه فأصبح يعرف باسم ياقوت الحموي، واستخدمه في تجارته، ولما زادت ثقته فيه لما لمسه فيه من مهارة وأمانة وذكاء متقد، بعث به إلى الشام وبلدان الشرق الأقصى نائباً عنه في التجارة، وهناك لم يحرم ياقوت نفسه من التعلم والتثقيف. ثم أعتقه تكريماً لعلمه وثقافته وغزارة معرفته. فاختار ياقوت أن يكون نسّاخاً ومترجماً، ثم عمل بالمناظرات الأدبية في أسواق دمشق وحلب والموصل وإربل وخراسان، وتردد على بغداد، لكنه استوطن في أول الأمر «مرو»، ثم غادرها إلى «خوارزم»، وظل يقيم فيها حتى شهد هجوم التتار عليها، فتركها وعاد إلى الموصل التي كانت تشكل مع حلب جزءاً من إمارة بني حمدان أيام مجد هذه الدولة، ثم انتقل إلى حلب مركز الثقافة العربية الأول، وهناك عاد لمواصلة مهنة الوراقة والنسخ. وقد دفعه حب المعرفة أن يولي وجهه شطر مصر – كما فعل أبو الطيب المتنبي ذات مرة، فذهب إليها حاملاً أقلامه وأوراقه وأحباره، وهناك وجد فيها كل رعاية وتقدير، غير أن الحنين دفعه إلى العودة ليعود إلى الشام، فعاد إلى الجنان بالقرب من حلب، وظل فيها حتى وافته المنية عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩م).(٤٢)

ومن مشاهير الورّاقين العرب، الذين أصبحوا فيما بعد من كبار الأدباء، وأهل الفكر الحظيري الورّاق، مؤلف الكتاب المشهور «زينة الدهر وعصر أهل العلم» والمتوفى سنة ٥٦٨هـ، وكذلك الوطواط المتوفى سنة ٦٣١هـ (١٢٣٤م)، مؤلف كتاب «غرز الخصائص الواضحة وغرز النقائص الفاضحة»، وهو نفسه صاحب المخطوط «مباهج الفكر ومناهج العبر»، ومن بين الأدباء الذين كانوا من الأصل وراقين : الداراني الدمشقي صاحب كتاب «فوات الأعيان» وصاحب مخطوط «عيون التواريخ». وكان من بين الوراقين من تولى القضاء مثل محمد بن الليث الأصم، الذي تولى زمام القضاء في مصر زمن الخليفة المعتصم عام ٢٢٦هـ، والقاضي «النبراوي» النوبي المولد. إلى جانب ذلك فقد حفل تراث النساخين والوراقين بالعديد من فحول الشعراء الذين ورد اسمهم في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر «عمر الورّاق» ناسخ أشعار أبي نواس، وسهل بن إبراهيم من شعراء القيروان في القرن الثاني الهجري، والذي كان ياقوت مهتماً به، فأورد له الكثير من الأشعار التي تغني

بها في حب الأندلس، كما كان من بين الوراقين من اشتهروا بالطرافة والظرف مثل ابن كوجك(٤٣).

حقا لقد كانت أحياء الوراقين في المدن العربية الإسلامية جامعة مفتوحة لكل الناس وفي الهواء الطلق، فقد كان أصحاب الحوانيت والمترددون عليها من المهتمين بالأدب والعلم والدين، بل كان بعض أصحاب الحوانيت يسمحون للعلماء بقراءة ما هو معروض فيها من كتب مخطوطة لقاء أجر يدفع، فيروى عن الجاحظ مثلا أنه كان يبيع الخبز والسمك في أسواق سيحان (نهر بالبصرة) ليكسب قوته، ويدفع ما يتبقى لأحد أصحاب حوانيت الوراقة ليتركه يقرأ ما في الحانوت من كتب طوال الليل، وظل الجاحظ على هذا الحال حتى قرأ كل الكتب المعروضة في حوانيت الورّاقين بالبصرة(٤٤). كما يروى عن أبي الطيب المتنبي أنه كان يختلف إلى حوانيت الوراقين ليقرأ ما عندهم، ومن الطرائف التي تحكى عنه أنه كان ذات يوم يجلس في حانوت أحد الوراقين في حلب، فجاء للوراق رجل ليبيع كتاباً من ثلاثين صفحة، فمد أبو الطيب المتنبي يده إلى الكتاب، وعكف يقرأ ما فيه، ويقلب صفحاته، ولما ملّ صاحب الكتاب من الانتظار، صاح في أبي الطيب قائلاً «هلا عطلتني عن بيعه، فإن كنتَ تبغي حفظه في هذه الفترة الوجيزة، فذلك أمر بعيد عليك!» فرد المتنبي «وإن كنت قد حفظته فمالي عليك؟» فقال صاحب الكتاب على الفور اعطيك إياه!» ويروي الوراق الذي شهد الواقعة «وأمسكت الكتاب أراجع صفحاته والمتنبي يتلو ما به، حتى انتهى إلى آخره، ثم استلمه فجعله في كُمه، ومضى لشأنه».(٤٥)

ومن ثم، لم يكن غريباً أن نجد بعض هؤلاء الوراقين الشعراء، يتغنون في أشعارهم بالقلم والورق والقرطاس والدواة، ومن أشهر هؤلاء، محمود بن الحسين الكاتب الشاعر الذي عشق وصف الطبيعة والمعروف باسم كشاجم والمتوفى سنة ٣٢٠هـ، والذي وصف بأنه ريحانة الأدب في بلاد الموصل في القرن الرابع الهجري، إذ يصف كشاجم دواته وقد ثبتت على مرفعها كأنها ملك يتربع على العرش، أو غادة فاتنة مستلقية على أريكة، وهي غادة سوداء، تبنى المُلك حيناً وتهدمه حيناً آخر، وهي رغم عجمتها وعجزها عن النطق والإبانة، إلا أنها عالمة بتدبير شئون العرش والرعية فيقول :

صينت بمرفعها الدواة فأصبحت　　　من شر أحوال التبذل سالمة
حنّت عليه لأنه من جنسها　　　وغدت له إن ناسبته ملائمة

فكأنها ملك على كرسيه   أو غادة وسط الأريكة نائمة
سوداء مجّت ريقتين فريقةُ   للمُلك بانية وأخرى هادمة
مُزِجَت دموع العائدين بدمعها   فأنوفهم أبداً لديها راغمة
زنجية عجماء إلا أنها   بجليل تدبير الممالك عالمة(٤٦)

أما السرى أحمد الكندي، المعروف باسم الرفاء السرى، والذي كان رفيقاً ومعاصراً لكشاجم وناسخاً لأشعاره، فقد وصف القلم بالأخرس البليغ، والصامت الفصيح، ويشبهه بالعاشق الصب الذي يكتم هواه، فإذا ما ترقرقت عبراته، فضحت أمره، وأفشت سره، وكشفت عن هويته، ويصفه أيضاً بأنه عريان رغم أنه يكون سبباً في كسوة الآخرين أو تعريتهم، وهو أسير في دواته، لكنه طالما أطلق أقواماً من الأسر بجرة منه، يقول الرفاء السرى :

أخرس ينبيك بأطراقه   عن كل ما شئت من الأمر
يذرى على قرطاسه دمعة   تبدى لنا السر وما تدري
كعاشق أخفى هواه وقد   نمَّت عليه عبرة تجري
نبصره في كل أحواله   عريان يكسو الناس أو يعري
يرى أسيراً في دواة وقد   أطلق أقواماً من الأسر(٤٨)

وكان العالم إذا لم يكن ذائع الصيت أو صاحب مال أو جاه أو منصب، يتكسب قوت يومه بنسخ الكتب وأعمال الوراقة، ومن أمثلة هؤلاء ابن زكريا بن يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤م) الذي عمل بهذه الحرفة رغم أنه في نظر البعض من أكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري(٤٩)، فقد روى عنه ابن النديم(٥٠) والقفطي(٥١) أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة. وفي نيسابور كان يعيش ورّاق اسمه أبو حاتم، قيل أنه ورَّق بها خمسين ألف نسخة، حتى ضاق ذرعاً بمهنته التي لم تكن تحقق له رغد العيش، فهجاها قائلا :

إن الوراقةَ حرفةٌ مذمومةٌ   محرومةُ عيشي بها زمنُ
إن عشتُ عشتُ وليس لي أكل   وإن مِتُّ مِتُّ وليس لي كفنُ(٥٢)

أما أبو العباس الأصم والذي ولد عام ٣٤٦هـ (٩٥٧م)، فكان من أكبر علماء خراسان ومحدثيها، أصابه الصمم وهو في الثلاثين من عمره، وكان لا يأخذ أجراً عن التحديث وإنما كان يورّق ليأكل من كسب يده(٥٣)، أما أبو بكر الدقّاق الشهير باسم «الخاضبة» والمتوفى

عام ٤٣٩هـ (١٠٨٦م) فكان يعول والده وزوجه وبنتاً من الوراقة، وقيل أنه نسخ في سنة واحدة صحيح مسلم سبع مرات، وكتب يعبر عن معاناة العمل في هذه الحرفة قائلاً «فلما كان ليلة من الليالي، رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومنادٍ ينادي «ابن الخاضبة!»، فأحضرت إليه، فقيل لي «ادخل الجنة!»، فلما دخلت الباب، وصرت من الداخل، استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت «آه استرحت والله من النسخ !!»(٥٤)

ورغم التضحية الكبيرة التي تحمّلتها هذه الطائفة، والتي بفضلها ننعم بقراءة عيون الأدب والفقه والشعر، وكافة فروع المعرفة، إلا أنه قيل إن من آفات العلم خيانة الورّاق للنص، فقد كان بعض الوراقين والنساخين يلجأون إلى الدس والتزوير في الأصل الذي ينسخونه، فقد كان الرفاء السري مثلاً ورّاقا ونساخاً، تخصص في نسخ ديوان صديقه كشاجم، ولكنه دس فيه وأضاف إليه بعض أشعار الخالدين، ربما ليزيد من قدر صديقه، أو ليزيد من حجم ما ينسخ فيزيد بالتالي مكسبه من بيع الديوان، ويقول في ذلك الثعالبي «فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم، أشياء ليست في الأصول المشهورة منها، وقد وجدتها كلها للخالدين».(٥٥) ونفهم من ذلك أن بعض الوراقين كانوا قليلي الذمة، وقد يشرح ذلك خجل الوراق سراج الدين المصري يوم القيامة من صحائفه السود، والتي أشرنا إليها من قبل، كما وصف أبو حاتم الوراق في شعره «بأن الوراقة مهنة مذمومة»(٥٦)، ولهذا فإننا نجد كثيراً من المؤلفين المسلمين يلجأون إلى نسخ أعمالهم بأنفسهم، ضماناً لسلامتها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بعض الوراقين من الأدباء المغمورين يؤلفون كتباً ينسخونها وينسبونها إلى مؤلفين مشهورين عادة يكونون قد رحلوا عن الدنيا، لكي يسوقوها أو يبيعوها بأثمان مجزية، هذه هي أهم الذنوب التي توجد في صحائف الوراقين السود يوم القيامة، أما الأخطاء التي كان النساخون يقومون بها عن غير قصد فهي السهو بحذف عبارة أو كلمة أو أجزاء، أو الخطأ الإملائي، أو تكرار نسخ عبارة أو فقرة داخل النص، ولهذا السبب نجد اختلافا كبيراً بين عدد النسخ لعمل واحد ولمؤلف واحد، وأصدق هذه النسخ تلك التي كتبت بخط المؤلف نفسه، ناهيك عن قضية الانتحال عندما يضع ورّاق أو نساخ اسمه على عمل لغيره وينسبه لنفسه. كل هذه المشاكل التي خلفها لنا الورّاقون والنساخون تفرض على الباحث أن يشرع بعملية النقد الظاهري للنص المخطوط قبل أن يأخذ به.(٥٧)

ولقد كان للوراقين وللنساخين طرقاً مختلفة في نسخ وتدوين التراث، فهناك النُساخ الرواة،

ونساخو النصوص التي تدون لأول مرة بخط صاحبها، وهناك النساخ «الأمالي» فقد كان الإملاء يعتبر في ذلك الوقت من أعلى مراتب التعليم، إذ يروى أن الجبانيّ المعتزلي أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة، وأملى أبو علي القالي خمسة مجلدات(٥٨). فقد كان العالم أو الفقيه في المجالس الكبيرة يجلس على مقعده وحوله تلاميذه مسلحين بالأوراق والمحابر والأقلام يدونون عنه ما يقوله، وكان كل مدون أو مستمل يكتب في أول القائمة «أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا» وكان هؤلاء المدونون يعرفون «بالأمالي»، ومن أشهر هؤلاء النساخ الأمالي ابن دريد وثعلب والزجاج الذي كان يدون أشعار أبي العلاء المعري. وفي بعض المجالس كان جمع الأمالي كبيراً لأن المتحدث كان عالماً أو فقيهاً ذائع الصيت، وفي هذه الحالة أوجدت وظيفة «المستملي» الذي يجلس علي مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين، وليردد كلام المحدث بصوت جهوري يسمعه من في القاعة جميعاً، ويجوز أن يكون في المجلس أكثر من «مستمل» ووصل أحياناً إلى سبعة حسب أعداد الأمالي وسعة القائمة، إذ يروي ياقوت أن كتّاب أبي قاسم البلخي كان به ثلاثة آلاف من الأمالي حتى إن البلخي كان يركب حماراً ليتردد بين هؤلاء وهؤلاء ويشرف على المستملين.(٥٩)

ولقد كانت مجالس العلم تعقد في المساجد أو في بيت العالم، بل كانت أحيانا تعقد في قصر الخلافة، فقد كان للحسن البصري مجلس علم في قصر المأمون، حيث يقام المجلس في إحدى أبهية القصر، وكان المأمون نفسه يجلس مستمعاً في حجرة خلف ستار شفاف يستمع من مستمل جهير الصوت يدعى هارون بن سفيان الذي اشتهر باسم «مكحلة»، ولقد قلد أمراء الأندلس من بني أمية منافسيهم وأعدائهم العباسيين في إقامة مثل هذه المجالس، فقد كان من الصعب الفصل بين رجال السياسة ورجال العلم والأدب والشعر. ولقد كانت قرطبة وطليطلة من أشهر المدن الثقافية في الأندلس، فلقد شهد قصر الحمراء بقرطبة العديد من هذه المجالس. فعندما عاد الفقيه الطنبي من المشرق، جلس يملي على النساخين وطلبة العلم في قرطبة ما جاء به من علوم المشرق الإسلامي، وتدفقت جموع الناس عليه لينقلوا عنه، فلما رأى الجمع غفيراً، أنشد مفاخراً :

إني إذا أحضرتني ألف محبرة يكتبن   حدثني طوراً وأخبرني
نادت بعقوتي الأقلام معلنة   هذى المحابر لا قعبان من لبن

ومن هنا تتضح مدى القرابة بين أهل العلم والوراقين والنساخين، فقد كان العالم إذا مات

كسر تلاميذه أقلامهم ومحابرهم، وطافوا أحياء المدينة نائحين مبالغين في الصياح(٦٠)

أما أجور النساخين والمدونين، فقد كانت تختلف باختلاف حسن خطوطهم، ودقة تدوينهم وأمانتهم في التدوين والضبط والمطابقة. وفي بعض الأحيان كان المؤلفون يجعلون النساخين والمدونين يبيتون عندهم طول الليل حتى يفرغوا من إنجاز المؤلف وعدد من النسخ منه، فقد روى عن عالم يدعى يعقوب بن شيبة السدوسي أنه صنف مستنداً وكان في بيته أربعون لحافاً لمن يبيتون عنده من الوراقين لتبييض المستند ونقله، وقد كلفه ذلك عشرة آلاف دينار حتى خرج المستند كاملاً.

وكما نتخصص نحن الآن في بعض فروع المعرفة، تخصص النساخون والمدونون في بعض الموضوعات التي يدونونها حتى يكونوا على دراية بما يكتبون، فقد كان هناك متخصصون في علوم الحديث والتفسير، وآخرون في علوم اللغة أو الشعر ونسخ دواوين الشعراء، وفريق آخر في النثر وعلم الكلام والفلسفة، أو في فروع العلوم العلمية كالطب والهندسة والفلك، كما كان هناك مشاغل للتذهيب والتجليد أورد النديم أسماء بعض مشاهيرهم.

هذه نبذة موجزة عن طائفة مغمورة قام على أكتافها صرح الثقافة العربية الإسلامية رأينا أنه من الواجب علينا أن نعطيها حقها، ونلفت النظر إلى الدور الذي قامت به والله أعلم. وصلى الله على رسوله الكريم المعلم الأول وعلى آله وصحبه أجمعين.

• • •

هوامش البحث

(١) الكهف (١٨).

(٢) انظر : الموسوعة العربية الميسرة (إشراف محمد شفيق غربال) دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٢-١٩٤٨، وكذلك انظر : دائرة معارف القرن العشرين (تأليف محمد فريد وجدي)، المجلد العاشر، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٧١، ص ٧٧٣.

(٣) انظر : أحمد أمين : ضحى الإسلام، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٢، ص ٢٠، ٢١، كذلك انظر إريك دي جروليه : تاريخ الكتاب، ترجمة الدكتور خليل صابات ومراجعة الدكتور حسن أحمد محمود، مكتبة نهضة مصر بالفجالة. القاهرة (١٩٦٥) ص ٣٦.

(٤) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي، أبو ريدة، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٤١ ص ٣٠٨.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية بالقاهرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٨٥ ناقلاً عن وول ديورانت، قصة الحضارة : الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ١٧٠.

(٦) الثعالبي (أبو منصور عبد الملك) لطائف المعارف ص ١٢٦؛ سعيد عاشور : المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٧) نفس الصفحة من نفس المرجع السابق.

(٨) إريك دي جروليه، المرجع السابق ص ٢٦.

(٩) سفندال : تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ترجمة صلاح الدين حلمي ومراجعة توفيق إسكندر، القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٠ - ٤١.

(١٠) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٨٦ ناقلاً عن :
G. Thompson: An Introduction to Greek and Latin Palaeography Oxford University Press, Oxford, 1912, p 35.

(١١) Adolf Grohman: Arabic Papyri in the Egyptian Library, Vol. 51., Part II and III, Cairo, 1934-1936; and 1938.

(١٢) أدولف جروهمان وحسن إبراهيم حسن : أوراق البردى العربية، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤، وهناك بعضاً منها لم ينشر حتى الآن خاصة في أديرة مصر الثالية.

(١٣) سعيد عاشور، المرجع السابق ص ١٨٦ = Thompson, op. cit, p 34-35

(١٤) آدم ميتز : المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(١٥) سعيد عاشور، نفس الصفحة من المرجع السابق و Thompson, op. cit, p 36.

(١٦) إريك جروليه، المرجع نفسه ص ٢٦-٢٧.

(١٧) سفندال : المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

(١٨) إريك جروليه، ص ٢٥.

(١٩) سعيد عاشور، نفس المرجع ص ١٨٨ = Thompson, op. cit, P *34*

(٢٠) إريك جروليه ص ٣٦.

(٢١) محمد عطية الأبراشي : التربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة (١٩٧٦) ص ٧٢.

(٢٢) المقري (أحمد بن محمد) «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٤٩، الجزء الأول، ص ٢١٨.

(٢٣) محمد عطية الأبراشي المرجع نفسه ص ٦٧.

(٢٤) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(٢٥) ولقد ذكر ابن خلدون أن أبا جعفر المنصور بعث إلى ملك الروم، يطلب كتباً يونانية لتزويد مكتبة القصر بها، فأجابه الملك إلى طلبه وأرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة من بينها كتاب إقليدس، وقام أبو يحى بن البطريق بترجمة كتب جالينوس وأبوقراط إلى العربية وفي عهد الرشيد نقل يحى بن ماسويه بعض الكتب الطبية إلى العربية، وقد بلغت حركة جمع المخطوطات والكتب اليونانية النادرة ثم ترجمتها إلى العربية ذروتها في عهد الخليفة المأمون، الذي بلغ شغفه بالعلم والعلماء درجة كبيرة حتى أنه راسل العالِمْ الرومي الشهير والأرمني الأصل ليون Leon وطلب منه أن يعمل على تسهيل مهمة بعثة إسلامية لجمع المخطوطات العلمية النادرة من القسطنطينية، ورحب العالم ليون بذلك، واستقبل البعثة العباسية في العاصمة الرومية، والتي كان من بين أعضائها الحجاج بن قطر، وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة في بغداد، وعادت البعثة بكنوز من الكتب والمخطوطات إلى بغداد حيث أشرف قسطا ابن لوقا على نقلها إلى العربية، بعد ذلك طلب المأمون من ليون الحضور للعمل في القصر في بغداد وأغراه بالمال ولكن الامبراطور ثيوفيلوس رفض السماح للعالم ليون بالسفر إلى بغداد اعتزازاً بعلمه، وقام بترقية ليون إلى وظيفة رئيس أساقفة سالونيك، ثم بعد ذلك رئيساً لجامعة القسطنطينية، ثم عاود المأمون الكرة وأرسل إلى الامبراطور ثيوفيلوس رسالة يرجوه فيها السماح لهذا العالم بالقدوم إلى بغداد ولو لمدة قصيرة، وأنه يعرض لقاء ذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم بين البلدين، غير أن ثيوفيلوس رفض ذلك لأنه اعتبر العلم «سراً يجب المحافظة عليه، مثل صناعة النار الاغريقية، ظنا أنه من سوء السياسة تثقيف البرابرة، وانتقم المأمون لذلك الرفض وأعلن الحرب على ثيوفيلوس وهزمه، وفرض عليه شروط الاستسلام التي من بين شروطها تسليم محتويات هذه المكتبة في القسطنطينية.

انظر : أسد رستم : «الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب» الجزء الأول : دار المكشوف بيروت (١٩٥٥) ص ٣٤٦-٣٤٧. ولذلك انظر : عبد القادر أحمد اليوسف : الامبراطورية البيزنطية المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٦٦ ص ١٢٠-١٢١ وكذلك ص ١٩٨، وانظر أيضاً : حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية : دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٣ ص ١٦٢ هامش ١١. وكذلك انظر الأبراشي المرجع السابق ص ٦٧.

(٢٦) أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٤، ص ١٠٨ إلى ١١٥.

(٢٧) سعيد عاشور : المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٢٨) وول ديورانت : قصة الحضارة : الجزء الثاني من المجلد الرابع (ترجمة محمد بدران) القاهرة ١٩٥٤، ص ١٧١.

(٢٩) عاشور، نفس المرجع ص ١٧٩.

(٣٠) مصطفى الشكعة : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٨٣ وما بعدها.

(٣١) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، مطبعة مصر، الجزء الثاني ١٣٢٦هـ. ص ٣٣٤-٣٣٦.

(٣٢) سعيد عاشور المرجع السابق ص ١٧.

(٣٣) المقريزي، ص ٢٥٥.

(٣٤) حسين محمد ربيع المرجع السابق ص ١٨٢-١٨٣.

(٣٥) أحمد شلبي : المرجع السابق ص ١٧١.

(٣٦) نفس المرجع ص ١٠٨-١١٥ وكذلك انظر : سعد مرسي أحمد : تطور الفكر التربوي، عالم الكتب القاهرة ١٩٦٦ ص ١٧٧-١٧٩.

(٣٧) الأبراشي : المرجع السابق ص ١٧٩-١٨٠ نقلاً عن دريبر وجيبون.

(٣٨) سعيد عاشور المرجع السابق، ص ١٧٩-١٨٠؛ آدم ميتز، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣٩) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، نشر المكتبة المرتضية بالنجف ١٣٥٨هـ، الجزء الثاني ص ١١٧.

(٤٠) محمد عطية الأبراشي، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤١) أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وآخرون : المنتخب في أدب العرب، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥٣ ص ١١٧.

(٤٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتاوي وعبد الحميد يونس، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٨٥.

(٤٣) هذه الفقرة مقتبسة من مقال للأستاذ طارق عبد الحكيم نشر في جريدة الشرق الأوسط فبراير ١٩٨٧ (١٤٠٧هـ).

(٤٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٦ : ١٧٤؛ محمد عبد المنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر (بدون تاريخ) ص ١٥٧؛ بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية، حياتهم وآثارهم، دار المكشوف للثقافة بيروت ١٩٦٨، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٤٥) عبد الوهاب عزام : في ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٩-٤٠.

(٤٦) مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص ٣٦٣-٣٦٨؛ انظر أيضا آدم ميتز، المرجع السابق ص ٤٣٧؛ وكذلك كارل برو كلمان : تاريخ الأدب العربي (ترجمة عبد الحليم النجار)، دار المعارف بمصر، الجزء الثاني، ص ٧٧.

(٤٧) آدم ميتز : نفس الصفحة من نفس المرجع؛ كارل بروكلمان، المرجع نفسه الجزء الثاني ص ٩٦-٩٧.

(٤٨) مصطفى الشكعة : المرجع السابق ص ٣٦٦-٣٧٣.

(٤٩) آدم ميتز، المرجع السابق، الجزء الأول ص ٣٠٥.

(٥٠) الفهرست : نشر جوستاف فلوجل ص ٢٦٤، أو نشر دار المعرفة بيروت (بدون تاريخ) ص ٣٦٩.

(٥١) أخبار الحكماء طبعة أوروبا ص ٣٦١.

(٥٢) آدم ميتز : المرجع السابق ص ٣٠٦.

(٥٣) نفس الصفحة من نفس المرجع؛ وراجع ابن الجوزي : المنتظم (طبعة أوروبا) ص ٨٧.

(٥٤) ورد ذلك في كتاب ياقوت الحموي «معجم الأدباء» المعروف باسم «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» (طبعة أوروبا) الجزء السادس ص ٣٣٧؛ وكذلك آدم ميتز المرجع السابق ص ٣٠٥.

(٥٥) الثعالبي : اليتيمة، الجزء الأول ص ٤٥٠-٤٥١ (طبعة أوروبا)، وكذلك آدم ميتز المرجع السابق ص ٤٣٧.

(٥٦) آدم ميتز، نفس المرجع ص ٣٠٥.

(٥٧) للمزيد حول مشاكل النساخ عند التعامل مع المخطوطات وتفادي ذلك انظر : سيد أحمد الناصري : فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٢ ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٥٨) آدم ميتز : المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٥٩) نفس المرجع ص ٢٩٩.

(٦٠) نفس المرجع ص ٢٩٧.

* هذا المقال كان في الأصل محاضرة ألقيتها على طالبات الدراسات العليا قسم التاريخ بكلية التربية للبنات بالرياض في حلقة البحث العلمي لعام ١٩٨٧ (١٤٠٧هـ).